

اغنيات واناشيد ، من عناد وسخرية ، من حزن وحلم ، من اخطاء وهفوات ، من فرح وموسيقى ، لقدرة على ان تعكس معاناة ادفا ، واحيانا اعيق ، من هبومنا الكبيرة . مفصصات الورق الملونة ، المتعة بالزيت ، تبعث فينا دهشة الاكتشاف ورومته والبه . تكثف امامنا رؤية الاشياء واحيانا تصححها . السننا ندهش لكلمة عابرة ينطق بها لسان طفل ، نقتل الف معنى ومعنى . فاذا هذه الرسوم أشبه ما تكون بالكلمات اللغناء العبقرية كثفت الكثير مما نود ان نقوله وبخامسة شديدة . بعيدا - ولو لقليل من الزمن - عن اشكال القهر والتكبيات التي تكاد ان تكون زادهم اليومي . وصاغت لنا هذه الحبة الثرية الملونة .

واخيرا ، فان هذه الدراسة محاولة لجعل اصوات الطفولة الفازحة قادرة على ان تأخذ مداها ، وان تعطى حقها ، ومحاولة لتحرير اوراق الطفولة ، بالوانها وخطوطها ، من فوق الكلمات الكابتة والاحكام والقيود والنظرات الميتة التي تحاول اسكات صوتها المعاني والصحيح وقتل ابداعاتها . فان نجحت في ذلك ، فان ذلك يعني ان اطفال البعثة ، عندما حاولوا ان يقولوا (حقائقهم الصغيرة) دون ان تموت في افواههم او على رؤوس النابلهم ، فقد كسبوا شوطا في نضالهم من اجل السيطرة على تشويبات الحياة المائلة وبشاعتها .

(1)

يعول ويلهلم فيولا في معرض حديثه عن بداية الاهتمام برسوم الاطفال « ... ان اكتشاف فن الاطفال ، هو نتيجة لاكتشاف الطفل كائنسان ، له شخصيته الخاصة وقوانينه الخاصة ... » (٥) . وثمة اشارات تدل على خلفية هذا « الاكتشاف » ، منذ منتصف القرن الماضي ، كان ممكنا ان يردد هيربرت سبنسر في كتابه عن التربية (١٨٥٤ - ١٨٥٩) : « ان الاعتراف السائد حول الرسم ، كاذاة او عنصر تربوي ، لهو دلالة من بين دلالات كثيرة عن النظرة العقلية حول الثقافة الفكرية التي بدأت تنتشر الان » . « ... ما هو الشيء الذي يحاول الطفل ان يصوره اولا - يستطرد سبنسر قائلا - الاشياء الكبيرة ، الاشياء ذات الالوان الجذابة ، الاشياء التي تحوم حولها دلالات مبسطة ... » . « أي طرق التقديم ، التشخيص ، تعطى بهجة أكثر للتوطين . » « ليس السؤال فيما اذا كان الطفل ينتج رسوما جيدة ، انما السؤال يكمن في

هل يطور الطفل قواه ... » . « في سني الطفولة الاولى ليس بالامكان اعطاء دروس رسم رسمية ، هل ، اذن ، علينا ان نكبت ، او نهمل هذه المحاولات الطفولية لتتقيف النفس ، ام هل نشجع ونوجه هذه المحاولات ، كتمارين طبيعية للادراك وقوة التوجيه ؟ » « يجب ان يحصل التالي : عندما يصل الطفل الى سن دروس الرسم ، سوف تظهر قدرة كانت غير موجودة . يستنتج من هذا اننا ضمينا نشجع التمرين من نماذج . واكثر من ذلك نشجع الانضباطية الرسمية في تعليم رسم الخطوط المستقيمة ، والخطوط المنحنية وكذلك المركبة ، هذه القواعد التي يبدأ بها بعض الاساتذة ... » (٦) .

ولا اظن ان ثمة حاجة للتذكير ، بأن هذه القواعد في تعليم الرسم للاطفال ، والتي يشجئها هيربرت سبنسر منذ اكثر من قرن ، ما تزال متبعة في مدارسنا . غير ان ملاحظات سبنسر هذه ، والتي كانت مقدمة قياسا لعصره ، تلتها ، بعد نحو ثلاثة عقود ، محاضرة لابنزر كوك بعنوان « طرق تعليمنا الفن وطبيعة الطفل » كانت قد القيت امام الجمعية التربوية ثم نشرت في مجلة التربية عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦ (٧) . وقد عرفت هذه المحاضرة ، بين غالبية الدارسين لفن الاطفال ، بمثابة البداية الرسمية للاهتمام برسوم الاطفال وتطليلها ، اذ ضمنها ملاحظاته واستنتاجاته حول مراحل نمو الاطفال من خلال رسوماتهم ، كما دعا الى مهم تربوي جديد في تعليم الاطفال يأخذ بعين الاعتبار مراحل نمو الطفل العقلية والذوقية (٨) .

وبعد فترة وجيزة (١٨٨٧) صدر كتابان ، وعلى وجه الدقة تقرير وكتاب ، الاول وضعه كورادو ريتشي حول رسوم الاطفال الايطاليين ، وثمة اعتقاد ان اصطلاح « فن الاطفال » قد استعمل لأول مرة في هذا التقرير (٩) ، كما يظن ان مجموعة رسوم الاطفال التي جمعها ريتشي قد تكون اول مجموعة نشر عنها بيان . اما الكتاب الثاني الذي صدر بنفس السنة ، فهو للاماني الفرد ليختفارك وتضمن « ان الطفل في تصويره للاشياء يبسطها ، حسب قوانين صالحة لكل الازمان وكل الشعوب ، ونحن تعرفنا على العلاقة ما بين محاولات الطفل الاولى ومحاولات الانسان البدائي » (١٠) . وفي عام ١٨٩٥ ردد جيمس سللي في كتابه « دراسات في الطفولة » « فن الاطفال ، شيء قائم بذاته » « الفنان الصغير هو رمزي اكثر منه طبيعي » (١١) . ومنذ ١٨٩٧ وعلى